

فى البدء كان العلم

منذ فجر التاريخ عندما فكر الإنسان ولاحظ ما يجرى حوله من شروق الشمس وغروبها وتوالى الليل والنهار، وسقوط الأمطار وحدوث الزلازل والبراكين. كان لابد وأن يصنع تعريفا وتحليلا لكل هذه الظواهر ويجهتد للتعرف على الأسباب. حسب ما أتى له آنذاك. وهده فكره إلى أن عملية الشروق تتم بسبب نقل الشمس ليلا على قرن حيوان أسطورى ضخم، لتشرق من ناحية الشرق صباح كل يوم، وبعد عدة آلاف من السنين. بدأ يلاحظ أن هناك دوران للأجسام السماوية حول الأرض. فاقتنع أن الأرض هى مركز الكون. والكون يدور حولها. ثم هداه علمه وبحثه بعد عدة ألوف أخرى من السنين إلى قناعة أن الشمس هى مركز مجموعتنا الشمسية. ووصل فى النهاية إلى فكرة أو أفكار مقبولة ساعدته على مزيد من التقدم.

لم يكتف الإنسان بتفسير الظواهر الطبيعية بل تجاوز ذلك إلى التفكير فى فلسفة الحياة وبداية الحياة على الأرض والخلود. وهل للكون بداية وهل له نهاية، وبذلك بدأ الإنسان يسجل مفردات ولغات وقراءة وكتابة التاريخ. لكنه فى كل الأحوال كان خائفا ويشعر بالضيق وقد أدرك النهاية المحتومة بالموت لكل البشر والكائنات، فبدأت الأديان وفكرة الحياة الأخرى بعد الموت. وفى خضم محاولة إيصال الخلود إلى الإنسان عن طريق حياة أبدية بعد الحياة الأرضية الدنيوية. بدأت تتشكل

أفكار البشرية مثل الحب والتضحية و الفضيلة والفداء والصبر والخضوع والرضا ، وغيرها من الأفكار التي يمكن أن تجعل الإنسان يسمو بإنسانيته ، وبالتوازي مع ذلك نشأ أجمل ما أبدعه الإنسان وهو الفن ، ليحول الحياة الأرضية المادية الدنيوية إلى حياة تتسم بالجمال والخلود والاستمتاع بكل ما في هذه الحياة من حلوها ومرها .

الخوف والفلسفة

يبقى الخوف دائما عند الإنسان شعورا دائما ومستقرا ، وقائما على دلائل مثل الغناء ، وثوران وفوران الأرض والبحر وغضبهما بين الحين والآخر ، وظلام الليل الدامس المحيق حولنا ، وهي جميعا ظواهر لا تتوقف على سطح الأرض ، ربما كان الخوف عاملا مساعدا على التطور والتقدم فى أحيان ، ولكن فى أحيان أخرى يكون عاملا مساعدا على التخلف . وفى كل الأحوال ظل التطور فى كل مناحى الحياة الإنسانية رتوبا بطيئا منذ الأزل وحتى القرنين الماضيين . لدرجة أن كل كيان بشرى أو إمبراطورية كانت تتكون فى القدم ، كان يعتقد القائمون عليها أن هناك ديمومة لكل شىء على سطح الأرض ، ولا يوجد أى تغيير ، عدا شىء واحد هو توارث وتوارى الأجيال بعضها لبعض ، وجاء هذا الإحساس نتيجة للإحساس بالبطء الشديد فى عملية التطور على مر العصور .

على أن الحياة على الأرض شهدت طفرة غير مسبوقه خلال القرنين الأخيرين ، فمثلا كانت سرعة الإنسان وقدرته على التنقل بالمشى أو الجرى على الأقدام بضعة كيلومترات فى الساعة ، ثم زادت سرعته باستخدام الدواب ، واستمر الحال كذلك طوال التاريخ

حتى حدثت الطفرة وزادت بصورة طفوية بصناعة السفن والمركبات ، لتصل السرعة إلى أكثر من ١٠٠ كيلومتر في الساعة. وفي العقود الأخيرة طفرت البشرية طفرات أخرى بتطور صناعة الطائرات والصواريخ التي جعلت قدرة الإنسان على التنقل تصل إلى ٣٠ ألف كيلومتر في الساعة ، حيث تم إطلاق المكوك الفضائي أتلانتيك وعلى متنه مجموعة من الرواد بتلك السرعة ، حدث ذلك في ١٠ يوليو ٢٠١١ في إحدى رحلات أتلانتيك المكوكية بين الأرض وبين محطة الفضاء الدولية (من المعلوم أن تلك الرحلة كانت آخر رحلات هذا المكوك قبل إيداعه إلى المعاش لبلوغه السن القانونية ، ومن المعلوم أيضا أن تلك الرحلة قد استغرقت حوالي عشرة أيام).

ورغم أن الإنسان الآن أكثر تطورا وأكثر أنسانية عن ذي قبل ، إلا إنه مازال يقاتل بعضه بعضا ، ومازلنا نجد جيوشا تتحرك ضد جيوش أخرى من أجل أحلام التوسع أو السيطرة ، وأحيانا أهل الجنسية الواحدة يقومون بقتل بعضهم البعض ، وخير دليل على تلك الوحشية ما شاهدناه في الحروب الأهلية في الجزائر ولبنان ، وما وقع من قمع أثناء ثورات الربيع العربي وخاصة في ليبيا وسوريا واليمن ، وما وقع في مصر من فوضى وقتل أثناء وبعد ثورة ٢٥ يناير من مذابح ليقتل الأخ أخيه من أجل أهداف أحيانا غير مجددة أو غير مفهومة. إن حب السيطرة قد أعمى البشر ، وهو ما جعلنا قد نقتنع أن شركائنا في الحياة على الأرض من حيوان ونبات وطيور وأسماك أكثر رحمة في سلوكهم مع بعضهم البعض من بنى البشر. الحيوان يأكل النبات ، والنبات يستجيب بدون مقاومة ، والإنسان يأكل الحيوان والنبات وغيرهما. أما النبات الأكثر

عطاء وتسامحا لا يأكل إلا من الشمس والهواء والماء. صحيح أن النبات يحتكر جزءا كبيرا من مساحة الكرة الأرضية في صورة غابات شاسعة ومنها المتوحشة. صحيح أن النبات يحمي نفسه بأن يجعل وجوده مهما لنمو الحياة الإنسانية والحيوانية على سطح الأرض بأن ينتج الأكسجين، إلا إنه يمكن القول إنه مازال الأكثر عطاء وتسامحا.

منذ حوالي ٧ آلاف سنة كان حوض النيل لا يسكنه إلا الحيوانات والنباتات المتوحشة والطيور الجارحة، قبل أن يستوطن الإنسان المصرى وادى النيل قادما من الصحراء الغربية المصرية التي كان المصرى يسكنها لأكثر من ٢٠ ألف سنة قبل حضارة وادى النيل (الحضارة الفرعونية). رحل الإنسان المصرى من الصحراء الغربية إلى وادى النيل بعد أن نضبت الموارد والمياه فى الصحراء الغربية بسبب التصحر والتغير المناخى طويل الأجل الذى يحدث بصورة درامية مرة كل ٢٢ ألف سنة. ليصنع أعظم حضارة عرفتها البشرية على ضفاف النيل. فهل هذا الشعب المتجزر الأصول غير قادر الآن على النقلة النوعية فى سبيل التحضر، ليجر معه المنطقة العربية إلى بدايات عالم جديد.

ولو عدنا للبدايات الأولى، وقبل سكان وادى النيل وسكان صحراء مصر الغربية، هل كانت رحلة بنى البشر وصراعهم من أجل السيطرة على الحيوان والنبات سهلة أم صعبة؟.

تخبرنا مسيرة التاريخ أن الإنسان عانى كثيرا فى فجر الحياة، فلم تكن السيطرة على الحيوان وهزيمته بالسهولة الممكنة. فقد ظل الإنسان ينهزم أمام الحيوان، لكن هذه المعاناة جعلت الإنسان يثابر إلى أن هزم الحيوان الهزيمة النهائية باستئناس القطعان البرية وتدجينها. وبدأت مسيرة

البشر في صنع الحضارة الإنسانية، وبدأت الثورة الزراعية التي هيأت لمجتمعات إنسانية حضرية. وبدأ الإنسان في صنع نظم وقوانين لجعل الحياة أكثر أمناً وأكثر سهولة، بل أكثر متعة. ولا ننكر أنه في البدايات الأولى وكثرة الصراع بين الإنسان والحيوان جعل البعض من البشر يرثون بعض صفات الحيوان أو يتصرف كالحيوان البرى بين أقرانه، بل ويسن قوانين تقنن حق المنتصر بأن تجعل القوة فوق الحق والعدل وليس العدل أساس الملك، بل يصل الأمر إلى تحليل تلك الممارسات بقوانين مثل تحليل الرق وتحليل الغنائم من بين من خسر المعركة. ويصل الأمر أن يرضى البشر بأن يتحول جزء منهم إلى عبيد تباع وتشتري. حدث هذا في عصور ما قبل التاريخ وفي العصور الوسطى، وحدث هذا أيضاً حديثاً خلال الحربين العالميتين الأخيرتين. ولكن بعد طول معاناة تعلم البشر الدرس، وتلك المعاناة جعلت الإنسان يصنع النظم والقوانين التي تحمي آدميته مثل قوانين حقوق الإنسان. والعدل أساس الملك، ونشأت الأمم المتحدة وانبثق عنها مجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية وسائر المنظمات الدولية، وأخذ الإنسان يحاول أن يكون لحياته هدف نبيل وأكثر أمناً، وأكثر سهولة وأكثر متعة، وتساعد طموح الإنسان كي يحقق حلمه وأمله القديم في الخلود.

يقول الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر Jean Paul Sartre (١٩٠٥ - ١٩٨٠) «إن تاريخ البشرية يتلخص في محاولة الإنسان أن يكون إلهاً خالداً». ورغم شهرة سارتر كفيلسوف وأديب وكاتب مسرحي وناقد اجتماعي، فإن أبرز ما يميزه هو طرحه لنظرية «الوجودية»، وارتباطها بشكل كامل به، كأنهما وجهان لعملة واحدة، فالوجودية هي

جان بول سارتر وجان بول سارتر هو من عرف الوجودية. والوجودية هي فلسفة تقوم على نظرة إلى الإنسان الفرد ترى أن «وجوده» هو أهم صفاته، وأنه غاية بذاته، ولا أهداف لما وراء وجوده، بل هو الذى يحدد أهدافه بنفسه. وتؤكد من جهة أخرى أن حرية الإنسان مطلقة ولا حدود لها. وقد أثرت فلسفة سارتر الوجودية فى معظم أدباء عصره، ومنح جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٤ لتعترف البشرية بفضله فى تطوير الفكر البشرى. وقد ساهم أيضا فى إعطاء الجزائر استقلالها ووقف أمام حركة بلاده الاستعمارية وكان قوله المشهور «السلام هو الحرية».

العالم المصرى د. أحمد شوقى فى كتابه «هندسة المستقبل» يقول إن القرن الحالى هو قرن الإنسان العاقل، ويرى أن الإنسان حتى الآن لم يصل إلى العقل. وفى سرد فكرته يستطرد قائلا «لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال دقة على جدار البيضة التى تحبسه مثل الكتكوت فى البيضة، فهى تهدده وتهددنا معه بالاختناق، نحن نُدق الجدار بعنف لأننا فى لحظة حرجة قد يتم الخروج بنا وبه، من هذه الحياة التى سئمناها أو ندمر اللامعقول فى ترسانات السلاح وآليات التخلف فى عالمنا». فهل الخروج من هذه البيضة سوف يُحول البشرية المتخلفة إلى الإنسانية العاقلة. لقد كانت كل دعوة للحق والخير والجمال هى دعوة لاعتلاء الإنسان العاقل ناصية الحكم، لنرى عالما جديدا. ويقول الطبيب والفيلسوف المصرى د. يوسف إدريس «لماذا أصر هذا الإنسان على الدق والدق لكسر الجدار وهو لم يكن يعرف أنه جدار؟ وأن خارجه كل ذلك النور والاتساع؟ أهى قوة مجهولة بداخله كانت تعرف؟».

عصر العلم

إن العصر الحالى هو عصر انتصار العلم والتوعية البشرية بطريقة لم يسبق حدوثها. وكيف لا وأدوات الإنسانية الآن غير مسبوقة. فهل نعلم أن أكثر من ٩٠٪ من العلماء عبر تاريخ البشرية الطويل هم من الأحياء الآن ويعيشون بيننا؟! وهل نعلم أن البشرية تملك الآن ذاكرة أقوى من ذاكرتها الشخصية بعدة ملايين بل المليارات من المرات، وهى ذاكرة الكمبيوتر؟! والقادم من جيل الكمبيوتر المسمى بالنانو أو الكوانتم كمبيوتر سوف يجعل كمبيوترا واحدا من النوع الجديد له ذاكرة تفوق ذاكرة كل أجهزة الكمبيوتر الموجودة حاليا فى العالم. وعليه يستمر التقدم والتطور بصورة مذهلة على كل الجبهات والجهات، إلا جهة واحدة وهى منطقتنا العربية، لكونها المنطقة غير المتحضرة نسبيا بالمقارنة بباقي أجزاء المعمورة، فما أسباب ذلك من وجهة النظر الفلسفية والعلمية؟.

نحن فى أمنس الحاجة الآن، وفى هذا الوقت بالذات وبعد ثورة يناير، إلى كلام مختلف عن السائد، إننا نحتاج ليس فقط لكلام جديد، بل لفكر جديد، ونوع من نمط الحياة جديد، حتى نتكيف وننسجم ونلحق بباقي سكان المعمورة، الذين يستخدمون الآن تكنولوجيات تفوق خيال البشر. إننا محتاجون للتكلم عن الفضاء الفكرى المحيط بنا، وعن آفة التخلف، وجرثومة الجهل، وغيرها من الآفات الكامنة والمتحكمة فى مجتمعاتنا. إننا محتاجون لعقول جديدة غير هذه العقول المعطلة التى نملكها، لعلنا نجد حلا لبعض مشاكلنا المستعصية وخاصة الفكرية منها، وبالتالي سوف تحل باقى المشاكل مثل العيش والحرية والعدالة الاجتماعية.

وهناك حقيقة لا شك فيها حسب الإحصاءات أن هناك نسبة في مجتمعنا تصل إلى أكثر من ١٥٪ من البشر ذوى قدرات وذكاء عالٍ ، بل في أحيان كثيرة يكونون متفوقين على أقرانهم في العالم المتقدم. هؤلاء يمكن لهم أن يحققوا طفرة حياتية في مجتمعاتهم ، لو توفر لهم المناخ المساعد لذلك ، وهذا العدد يكفي لتغيير أى مجتمع أو منظومة مجتمعية فى غضون خمس سنوات على الأكثر، لكن للأسف الغالبية المتخلفة تمنع بل تدمر أى عمل يقوم به هؤلاء ، وخير دليل على ذلك هو ما حدث أثناء الفترة التى تسمى فترة التحول الديمقراطى فى مصر بعد ثورة شعب مصر فى يناير ٢٠١١ . فهل آفة التخلف ومستوى تواجدها فى مجتمع ما تساعد أحيانا على تأجيل الطفرة ، هل تلك الآفة هى التى تحول المجتمع إلى مجتمع الفقر والجهل والمرض. هل آفة التخلف مرتبطة بالموورثات البالية وأفكار عصور الانحدار؟ أم هى مرتبطة بتقاليد العصور الوسطى المسيطرة على مجتمعنا حتى الآن ، أو من البيئة وحرارة الجو وقسوة الأرض فى هذا الجزء من العالم؟ أم هى جينات قد ورثناها من أجدادنا الأعزاء على مر العصور؟ أم أن آفة التخلف لها علاقة بموضوع الخير والشر وتفضيل المتخلفين للشر عن الخير فى سلوكهم؟ وهل الحلول ممكنة أم مستحيلة؟.

من غير الممكن أن يكون تخلفنا وراثيا. لأننا أصحاب حضارات عظيمة سابقة. وغير ممكن أن يكون بسبب البيئة لنفس سبب نمو حضارات قديمة فى تلك البيئة. فهل الخير والشر والعادات والتقاليد هى من بين الأسباب فى شيوع هذا التخلف؟ وهل الحل يكمن فى العمل المثابر الطويل الجاد ، وهل الدأب فى العمل الروتينى يمكن أن يساعد

على تطور هذا المجتمع ، خاصة إن كان له مردود مادي جيد على حياتهم. إن الإنسان الآلة - الذي يعمل ليلا ونهارا - يمكن أن يكون أفضل السبل والحلول للتغلب على جزء كبير من هذا التخلف. إن إلهام هؤلاء البشر بأن العمل سوف يساعدهم على العيش في حياة أكثر رغدا، وأن الحياة تستحق أن نحياها لا أن نحاربها، وأنه من الأهمية إفساح المجال للإنسان العاقل أن يبدأ مسيرته في تعمير الأرض، ليس لنا وحدنا، ولكن للبشرية ككل. هل ذلك يمكن أن يكون أحد الحلول المتاحة؟.

دائما ننحاز للعلم في عصر العلم ودوره في فك شفرة التخلف المجتمعي، لأن العلم في هذا العصر هو السلاح الماضي والممكن حاليا. آن الأوان أن نتكيف وندمج مع باقي سكان المعمورة.

